

هل كسدت سوق القراءة؟

د. عثمان أبو زيد عثمان*



جلست في محل لقص الشعر أنتظر الدور وأمامي طاولة تتوسط المكان عليها مجلات قديمة، مددت يدي أتصفح واحدة منها، ولدهشتي كانت نسخة من مجلة صادرة قبل عشرين عاماً تضمنت مقالاً لي. قلت في نفسي: هذه جهودنا لا تذهب بديداً، فما نكتبه اليوم ربما يجد حظه من القراءة ولو بعد حين في صالون حلاقة أو



عيادة أسنان، واجهات بيع المجلات والصحف تملأوك بالتفاؤل وهي تزدهم بالعناوين المتنوعة؛ في السياسة والتجارة والأزياء والعطور والرياضة والكمبيوتر، وعندما تسأل البائع عن أرقام التوزيع تجدها في أغلبها متواضعة جداً خلال الصيف الماضي حاولت أن أشبع الفضول بالتردد على المكتبات ومراكز بيع المجلات والصحف في عاصمتين عربيتين... شاهدت عناوين تباع نسخة أو نسختين فقط، وعناوين لا تباع شيئاً قط. وجدت فيما وجدت صحيفة (تابلويد) أدبية مطبوعة على ورق الجورنال جيدة المضمون جداً، كتب أحد المحررين يندب حظ الصحيفة ويشكو مما تعانيه من الكساد.

قال المحرر إن مجلة الرسالة التي رأس تحريرها أحمد حسن الزيات قبل نصف قرن كانت توزع أكثر من سبعين ألف نسخة، في حين بلغ ألفاً وخمسمائة ١٩٩٩م عدد النسخ المطروحة للبيع من مجلة (.....) عدد شهر فبراير أما مجلة (.....) فقد رجع منها ٣٩، ٨٪. بنسبة مرتجع ٩٠٣ نسخة، وزع منها. والأرقام من تقرير هيئة الكتاب ٧١، ٨٪ في الشهر نفسه.

يبدو أن حالة الكساد لا تقتصر على بلد دون الآخر، فقد اطلعت في مجلة لوس أنجلس تايمز مقالاً كتبه أستاذ في جامعة نيويورك عنوانه موت (القراءة) يقول فيه: هناك (متفائلون يضعون في حساباتهم إحصاءات النشر عندما يتحدثون عن ازدهار القراءة).

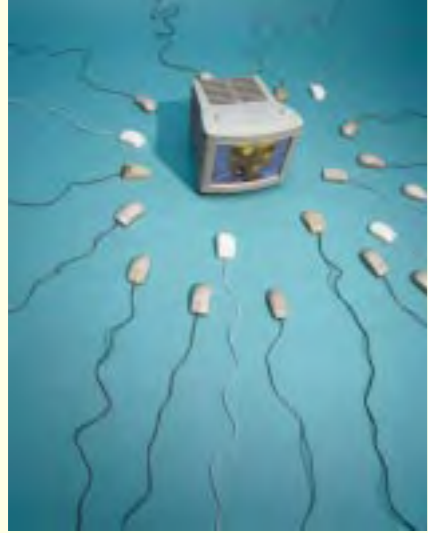
لقد بلغ عدد العناوين الجديدة من الكتب سنة ١٩٩٨م في أمريكا أضعاف ما أنتجته دور النشر قبل أربعين عاماً وتشير ١٦ عنواناً، وهو يساوي ١٩٦. لكن آه. هل هذه الكتب ١٩٩٠م. نسخة خلال عام ٢ بليون أرقام البيع إلى قد قرئت فعلاً؟ تدل استطلاعات حديثة لوكالة جالوب أن أعداداً أكبر من الناس يقولون إنهم لا يقرأون.

في مجتمع يميل إلى تحقيق النجاح على أساس التخصص الدقيق يميل الناس إلى القراءة النوعية التي لا تتيحها الكتب عادة، وهذا ما يلجأ الناشرين إلى إنتاج كتب متخصصة جداً! منذ سنوات حققت كتب الطبخ أعلى المبيعات في أحد معارض الكتب وهكذا توجه المجلات وجهة نخبوية استجابة لمتطلبات العصر الذي يتسم بالتنوع وتجزئة الجمهور. ذلك تفسير وجود مجلات تنزع للتخصص الدقيق جداً، مثل مجلة تخاطب جمهوراً من مرضى السعال السكري مثلاً أو هواة صيد الأسماك أو محبي سباق السيارات واعتاد الناس القراءة الخفيفة على طريقة الوجبات السريعة (تيك أوي)،

فاكتسبت صحافة المجلة وجهتها بالتخصص النوعي على أساس الجمهور أو الموضوع كثير من القراء يتعامل مع الصحيفة أو المجلة تعامل من يبحث عن شيء يدخل في اهتمامه الشخصي فقط، فهو (يفليها) وكأنه يتأكد أنها لا تحمل شيئاً مهماً له. وهناك القارئ الذي يستدعي النوم حين يضع أمام ناظره كتاباً أو صحيفة، ومن يقرأ في جلسة سمر يسترق النظر إلى ما في يده من كتاب أو مجلة، واستشرت عادة (القراءة على الماشي) وهي قراءة طفيلية تلجئ الموزعين هذه الأيام إلى حماية المطبوعات بالتدبيس أو بوضعها داخل كيس بلاستيكي ويشبه ذلك حيلة اقتناء الكتب بالتصوير والحصول على نسخة الكتاب بسعر زهيد، دون مراعاة لقوانين الملكية الفردية أو حقوق المؤلفين، وهذه سرقة سافرة، وإن كان المكتبيون ينفرون من هذا الاتهام الغليظ فيصفون سارق الكتاب من المكتبات العامة بأنه مستلف دون إذن.

أما نسخ الكتاب ألياً ووضعها في الأقراص المدمجة فقد أتاح فرصة اقتناء الكتاب بطريقة أكثر يسراً وسهولة. لقد جاء الوقت الذي يحمل فيه الشخص مكتبة كاملة داخل جيبه وهذه هي الحيل العصرية لاقتناء الكتب. في وجود المكتبات العامة التي صارت تتيح الأشرطة والأقراص إلى جانب الكتب، لم تعد ثمة حاجة إلى شراء الكتاب، وفي الزمان القديم كانت خزانات الكتب الوقفية.. ذكر المقري في كتابه (نفح الطيب) أن أبا حيان أثير الدين بن يوسف النفري وهو الإمام النحوي الغرناطي المشهور كان يعيب عليه شراء الكتب، ويقول له: الله يرزقك عقلاً تعيش به، أنا أي كتاب أردته استعرتته من خزائن الأوقاف، وإذا أردت من أحد أن يعيرني دراهم ما أجد ذلك منذ صامويل مورس ومارك كوني وتوماس أديسون ظلت وسائل تبادل المعرفة في اطراد وتقدم؛ أجهزة التسجيل الصوتي والطباعة والتصوير والفاكس والكمبيوتر، هذه الوسائل جميعها ذات أثر إيجابي على القراءة، فقط هناك وسيلة واحدة يقال إنها أسهمت في إغراض الناس عن القراءة بشكل كبير هي التلفزيون كانت المكتبة المنزلية جزءاً من البيت في السنوات الماضية، ثم بدأ أغلب الناس يستعوضون عنها بغرف المعيشة التي يتصدرها جهاز التلفزيون والقلة النادرة من الناس هم الذين يقاطعون التلفزيون مقاطعة تامة، مثل صديقي ذلك الذي سرقوا تلفزيونه من المنزل فقال إن اللص أسدى إليه معروفاً، ذلك أن أولاده انصرفوا إلى اللعب الإيجابي والى استذكار الدروس أما صديقي الآخر، فقد أراد أن ينشئ أبناءه على حفظ القرآن الكريم، ولما وجد إغراض الأولاد عن الحفظ بسبب التلفزيون وجد نفسه أمام خيارين لا ثالث لهما: حفظ القرآن أو التلفزيون، فاختر حفظ القرآن، وخرج التلفزيون من البيت.

هناك من يعارض هذا الموقف من التلفزيون، وأن هذا الجهاز لم يكن سبباً في كساد سوق القراءة. على اعتبار أن جميع الوسائل العصرية بما فيها التلفزيون هي وسائل قراءة أيضاً بالمعنى المعجمي الأصلي للقراءة، لا المعنى



الحرفي أي معرفة. الأبجدية. قال ابن فارس صاحب مقاييس اللغة في معنى قرى: القاف والراء والحرف المعتل يدل على جمع واجتماع. وفي معنى القرآن الجمع وسمي قرآناً لأنه يجمع السور فيضمها.

أول كلمة من القرآن نزلت على رسول الله ﷺ هي اقرأ، وردت بصيغة فعل الأمر في سورة العلق تأكيداً للاهتمام. وفي حديث عائشة جواب الرسول ﷺ وسلم عندما ابترده جبريل عليه السلام بكلمة اقرأ أنه قال: ما أنا بقارئ.

في أيامنا هذه، كل إنسان يعمل في حقل مرتبط بإنتاج المعرفة وتوزيعها وتلقيها فهو قارئ يتعاطى مع المعرفة معروضة بالصوت والصورة، فكأننا نعود القهقري إلى الشفاهية هناك الكتب المسجلة على أشرطة كاسيت، تقرأها وأنت تقود سيارتك، غير ما يبشر به العصر الجديد للكتاب الإلكتروني، لن يصعب على قارئ العثور على كتاب يريده خلال دقائق معدودة ويتم تحميله على الجهاز ويقرأه إن شاء مغمض العينين عن طريق برنامج صغير للقراءة الصوتية. (د. محمد المخزنجي، في انتظار الكتاب الإلكتروني).

وقبل كل هذا وذاك فإن المهم دائماً هو وجود الرغبة في القراءة، مع كثرة الشواغل والصوارف، ومع تزايد وجود الأميين الجدد، أولئك الذين يتصفون بزهد عجيب في العلم والمعرفة، وهؤلاء يصدق فيهم المثل اليماني القديم (مين يقرأ خحك في الغاغا؟) والمعنى واضح.

هل تريد أن تضحك من قلبك؟ إذهب إلى نكت مع مكتوب لتقرأ، وتشارك، وترشح النكتة التي تعجبك أكثر!!

* رابطة العالم الإسلامي - مكة المكرمة